مُدن عربيّة : ٤

الكويت

سابا شبر

للمدن العربية ، شأن معظم المدن في العالم، امجادها وضعفاتها ، ولها محامدها ومعايبها. وهي كائنات « تولد » وتنمو وتموت ، وتبعث حية اذا اقتضت ذلك الضرورة ومتطلبات الزمان والمكان وزخم الحياة. وفي المظاهر المجيدة للمدن العربية، كالقدس والقاهرة وبغداد ودمشق وتونس وغيرها، امجاد لنا، مثلما في المظاهر المحزنة للمدن المذكورة نفسها ما يبعث فينا الحزن . والقديم والجديد يتشابكان في هذه المدن ، ويتشابك فيها كذلك الرونق والبشاعة . ولا ينفك الزمان والمكان يلطمان العين والعقل معا ، بينما تقوم حواس اللمس بتسجيل سائر الصفات المميزة للقديم والجديد والرديء . وتمتلىء مدننا العربية بالقصور وبالاكواخ، وقد خُطّ فيها تاريخ العربي وفكره ونفسيته وشخصيته وحقيقته العظيمة — والحقيقة العالم العربي ، الذي لا يزال ينظر البعض اليه كمجرد حلم ، مع ان القاسم المشترك بين مدنه وتواريخها وهندستها المعمارية قوة صاهرة لما فيها من تشابه وتماثل وتوحد .

والمدن العربية شبيهة بعينات النبات والحيوان . فانه يمكن تصنيفها بسهولة ، لكن ذلك لن يؤدي الى اية غاية مفيدة . ففي هذه المدن نواحٍ سامية ونواحٍ وضيعة ، السامي منها يكافح دوما كفاحا ضاريا ضد الوضيع . والضغوط السكانية ، وتأثير الهياكل النفط ، ويقظة الجماهير المغلوبة على امرها ، وستراتيجية الحرب الباردة ، وتوق العربي للراحة والبذخ والرفاهية ، ونزعته نحو التهرب من صعوبات الحياة وحقائقها — هذه كلها مكتوبة بوضوح على وجه المدن العربية ومحفورة بعمق في كيانها وتركيبها وسياسة تخطيطها .

والكويت اكثر المدن العربية اثارة للدهشة . ان هذه المدينة العربية غير العادية مجهر مكبر ومنظار مقرب للعربي في آن واحد ، لعقله ونفسه وروحه ومُثله وآماله. انها افضل صورة مكبرة ومصغرة للعربي ، اذ هي تعكس تراثه وتاريخه ، مثلما تعكس وضعه الحالي، بنواحي القوية وغير القوية كثيرا فيه، وسعيه (المتئد والمنظم احيانا والمحموم وغير المنظم احيانا) الى احتلال مكان لائق تحت الشمس . فهنا ، في الكويت ، مزيج مختلط من العرب ، جاؤوا من سوريا وفلسطين والاردن ومن لبنان ومصر والسعودية ومن العراق واليمن ومن سائر انحاء منطقة الخليج العربي، والتحموا مع ابناء البلد فيه باعداد متساوية

تقريبا . ولا يقلل من اهمية هذا المزيج من العرب وجود مزيج آخر من الايرانيين والباكستانيين والهنود ومن الشعوب الاخرى ، حتى البعيد منها كاليابانيين والامريكيين وهؤلاء الوافدون الجدد يحضرون معهم شيئا من مدنهم ، يأتي كل منهم بصفة مميزة، تضيف الى لون الكويت و جوّها لونا وجوّا ، وتغيّر فيها من هذه الناحية او تلك .

وقد انبثقت مدينة الكويت فجأة ، على عكس المدن العربية التقليدية ، وخاصة العواصم والمدن الرئيسية منها ، واتسعت ، وامتدت لتصبح مدينة ، ثم عاصمة ، ثم دولة ، — كل هذا في فترة لم تبلغ عقدا ونصف العقد من السنين . وكثير من معالم الكويت ومن مميزاتها غزيرة فريدة، بسبب بحبوحة العيش العظيمة الناتجة عن اكتشاف النفط وتسويقه بكميات هائلة ، بحيث يحتاج البحث في وضعها الفذ المتشعب الى مجلدات عديدة . والواقع ان كلمة « فذ » ليست اللفظ الانسب لوصف الوضع في الكويت : وربما اصبحت كلمة « كويتي » يوما ما ، مرادفا لكلمة « فذ » . فالكويت فذة فريدة في العمران وفي البحبوحة ، وفي الطموح والجرأة والتطور ، وفي الحكم وفي البنيان الاجتماعي . وربما كانت الكويت فذة فريدة ايضا في كونها في الواقع مدينة طبيعية عادية تتمتع ببحبوحة غير طبيعية وغير عادية .

الكويت ، كمجتمع ، مثال للمدينة العربية . اما الكويت كمدينة فقد تكون كل شيء الا ان تكون مثالا للمدينة العربية . ان تكوين الكويت المدني وتركيبها العمراني وجفافها وفقدان ماء الشرب الطبيعي فيها ، وبدايتها المتواضعة التي تفتقد الى الامتداد التاريخي المتواصل والى آثار الماضي ، وصحون البيوت ونوافيرها و « ديكوراتها » الداخلية العربية السائرة كلها الى الزوال ، وما فيها من سيارات ضخمة عديدة تلقاها الناس تلفتّ ، وكلها انيقة وجديدة ، — ذلك كله يسهم معا في جعل الكويت صورة مغيبة لاتجاه عمراني عالمي يبحث عن اسلوب ومصطلح ، عن شعر ونثر مَدِيَني ، او حتى عن علامات وقف وترقيم ، عن هدف و حلم . الكويت مدينة ومع هذا فهي ليست بالمدينة هي مدينة ودولة، مدينة — دولة من عهد خاص غريب من عهود النهضة. انها مدينة صلبة وخشنة وخجولة ، تثير كافة انواع ردود الفعل الجمالي ، ومع هذا فهي مدينة بريئة تستثير الاعجاب والعطف وتتميز بمميزات وعلامات فارقة من نواحٍ كثيرة . وبدلا من ان ترتبط بمراسيها التاريخية المتواضعة وبتراثها البسيط الجميل، فانها ترتبط بالمستقبل : بمستقبل البحبوحة والرخاء والترف، الذي تتوق له سائر المجتمعات — الا الكويت، التي بدأت منه بسرعة .

ما يدهش المرء اكثر من اي شيء آخر في الكويت ، جدتها جدة غريبة . ولا يمكن

القول ان الكويت مثال للمدينة العربية الجديدة ، لان معظم معالم المدينةالعربية (باستثناء المساجد) تصعب رؤيتها واختبارها في الكويت. وفي الكويت شبكة من الطرق العريضة (هي في الواقع اشبه « بطرق سباق ») لم تجرؤ اية مدينةعربية بعد على شق مثلهاخارج المدن – بله داخلها . ومـا على المرء الا ان يتخيل ماذا ستكون عليه مثل هذه الشبكة من طرق السباق ، لو انها تشق الاحياء القديمة من القاهرة او القدس او دمشق وتربطها مع الاحياء الجديدة فيها ربطا مصطنعا غير عضوي . ومع هذا فقد كان الامر في الكويت مختلفا وبدا وكأنه هو الامر الطبيعي، وذلك لان سور المدينة كان من الدقشوم ولم يكن من الحجر ، وكانت المباني من الدقشوم لا من الحجارة ، وكان تخطيط المدينة مسطحا غير متموج ، وكانت المبالغ المدفوعة كتعويضات لاصحاب الاملاك والاماكن المتأثرة بالعمل خيالية باهظة . وهكذا تمت عملية تهديم المدينة القديمة واعادة البناء ، هذه العملية المعجزة الواسعة النطاق،بسرعة خاطفة ، وتمت بالتاليعملية بناء مدينة هائلةجديدة كل الجدةتقريبا.

فوق رقعة صحراوية فريدة ووعرة يمتد كيان وتركيب مَدْيَني ، الى جانب معمار المدن والخلاء بعيد جدا عن الصنف الفريد الذي تحتاج له الرقعة الصحراوية ، ان لم يكن غريبا عنها . وبالرغم من هذه « المخالفة » للقواعد المدينية والمعمارية القياسية، لا يزال كيان المدينة ومبانيها وحدائقها يسير بسرعة محمومةنحو التطور ، ويبدو انه ما من احد يلاحظ ذلك ، بالرغم من جميع الاعتراضات التي قدمت ضد هذا الاسلوب في العمران في السنوات الثلاثين الماضية . والكويت تختلف في هذا المجال عن معظم المدن العربية . فقد قامت هنا ضجة كبرى لا تزال قائمة وربما ستظل قائمة لوقت طويل– ملحمة من العمليات الضخمة، تجمع بين الطرق والمباني ومجتمع متجانس يحدوه سباقعنيف مع الزمن ، للنجاحوتكديس الارباح وكسب الاعتبار واحداث اثر على قشرة هذه الكرة الارضية .

لا شك ان الكويت تختلف عن سائر المدن العربية . انهـــا مدينة جديدة . حتى المدينة القديمة ، على نقيض سائر البلدان والمدن العربية على مر التاريخ ، هي ايضا مدينة جديدة . اما المدينة الجديدة فهي جديدة بشكل غريب ومثير . هذه الجدة ، وما يكمن وراءها من اسباب ، هي التي تجعل من الكويت مدينة فريدة فذة ، ان لم تكن بدعة ، ليس فقط بين المدن العربية وانما ايضا بين المدن في كل زمان ومكان .

وبينما يترك التاريخ وسير التاريخ اثره بشكل ثابت على ملامح بعض المدن العربية ، كبغداد ودمشق والقدس ، لا نجد على المحيا العمراني للكويت تجاعيد التاريخ ولا نرى اثر الجمال فيه . لكننا نجد على وجهها قطعة ضخمة جدا من التضاريس العالية المنبثقة كالتلال البادية العربية المحرقة ، وهي تروي قصة مدينة تكافح الطبيعة بصلابة غريبة

مكرسة ، تؤكد على طبيعة العربي المندفعة بعزم فريد على صنع قصبةٍ عربية حديثة على وجه رمال الصحراء العريقة ، سرابِ شيء حقيقي ، مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات ومهما بلغ الطيش .

تتمسك المدينة القديمة ، التي تقاسي من مد وجزر العمران الجديد الذي لا يرحم ، بموقع الكويت القديم كحامية شهمة تذود عن الحصن في وجه عدو متفوق قاسٍ . والمدينة القديمة ، التي تقوم هناك عارية خجولة يمزق جسدها البولدوزر وعمليات التثمين السحرية ، انما هي بحد ذاتها ملحمة بطولة ، قصة هوميروسية ، وربما فلتة من فلتات التاريخ الشاذة . كيف جاءت هذه الكويت القديمة الى الوجود اساسا ؟ ولماذا جاءت ؟ وكيف صمدت ونجحت ؟ ولماذا تمسك سكانها بهذا الموقع من الارض بهذه الشدة ؟ ولماذا تعرضت لضربات البولدوزر المؤلمة مدة الملايين من ساعات عمله ؟

بسبب النفط ، طبعا . فكمن ينتظر بمزيج عجيب من الصبر وعدم الصبر ، تحول الكويتيون الامر حينما كانت الحالة مستحيلة تقريبا مدة طويلة الى ان يتم اكتشاف النفط يوما ما . وعندما اكتشف انتج بكميات هائلة جدا : هائلة لدرجة انها جعلت الكويت تقفز من حقبة عمرانية معينة ومجتمع معين وطراز هندسي مميز ، الى حقبة ومجتمع وطراز اخرى ، لها اشكال ومعالم على طرف نقيض من معالم تلك واشكالها .

يرى الزائر عددا من المباني العتيقة منثورا في الكويت القديمة بين كتل المباني الجديدة بينما الوضع هو عكس ذلك في معظم المدن العربية ، حيث تنتشر المباني الحديثة بين القديمة هذا هو الانطباع الذي يكونه الزائر اذا حملته سياحته على التجوال ماشيا في دروب الكويت القديمة وزواريبها . فسيرى عند كل منعطف بقايا ماضٍ قديم ، ماضي الامس فقط ، يجاور الجديد جيرة غريبة ، وسيرى الجديد ايضا يجاور القديم ، يجاور الامس جيرة اشد غرابة . وقد يتأمل المغامر الحساس ، الذي لا يهتم بالتبدل بحد ذاته بل يهتم بطبيعة التبدل ونوعيته ، في المناظر الحميمة في القديم تأملا عاطفيا ، وقد يغمره الجديد بالاعجاب لما فيه من مناظر الانشراح والسعة .

ليس في مدينة الكويت ، لا القديمة ولا الجديدة ، ككيان لم يستقر ويتبلور بعد ، توازنٌ ولا انسجام ولا مقاييس ولا تناسب في الطريقة التي تفعل فيها المباني والشوارع والدوارات والحدائق وتتفاعل وتنعكس من اجل ايجاد شكل عمراني وتجمع عمراني . فبعض المعالم العمرانية الجديدة السمجة تتضخم بدون تناسب لتصبح هي الغالبة ، بينما ترق معالم اخرى ، كالمساجد والبنايات القديمة ، بفعل التصميم او الاهمال ، وتضمحل وتتواجد المعالم الغالبة والمغلوبة في نظام عجيب من الانتظام ومن الفوضى (يتوقف على طريقة نظرة الانسان اليها) حتى اضحت المدينة خليطا عجيبا من اشكال شتى

وتسيطر السيارات والطرقات ذات الخطين والدوارات المتزايدة ، على رمال الكويت سيطرة مطلقة. ويكاد يصرف المرء وقته كله في السيارات، او على جانب السيارات ، او بين السيارات ، لقضاء كل حاجة مهما كبرت او صغرت عليه قضاؤها. فالتنقل بالسيارات على طرق دولية ممتازة متقوسة وفي دوائر يميز هذه القصبة العربية الفتية ، المتشامخة ، الديناميكية ، الخجولة ، المحيرة .

في الفدان الواحد في الكويت من القصور والفيلات والمدارس ومن مراكز الاطفائية والعيادات ومن الجوامع ومراكز الشرطة والمراكز الاجتماعية ومن اعمدة الكهرباء وانتينات التلفزيون ومن السيارات والشاحنات والدكاكين ومن كل انواع الدارات الحديثة وسائر المباني (وكلها تتعايش هندسيا في فوضى منظمة) اكثر مما يوجد منها في اية مدينة عربية اخرى ، ان لم نقل في اية مدينة اخرى في العالم بل في التاريخ . وتوجد هنا ايضا اضخم محطة تقطير للماء في العالم، ومصعد ضخم للحبوب، واكبر مذخر للادوية في العالم، وسجن حديث لعله احدث سجون العالم ، ومحطتا كهرباء ضخمتان ، بالاضافة الى عدد هائل من الاشجار في منطقة صحراوية لم تكن فيها قبل سنوات شجرة واحدة . ويمكنك ان تشاهد الوان قوس قزح على مباني الكويت اكثر مما تشاهدها على مباني اي مكان آخر في البلدان العربية ، وربما في العالم كله .

والكويت هي المدينة الوحيدة في العالم العربي ، بل وفي العالم كله في الواقع، التي لا تجبي ضرائب بلدية . فالبلدية تحصل جزءا كبيرا من ميزانية الدولة للانفاق على نشاطاتها. وتبدو البلدية وكأنها مؤسسة مصرفية ضخمة للاراضي التي نزعت ملكيتها من اجل اجراء كافة انواع التخطيط فيها . وتخصص مبالغ باهظة كل سنة لهذه « الهواية » التي تمارسها البلدية بكثير من الاهتمام والجدية . والواقع انه ما من بلدية في العالم متنعمة اكثر من بلدية الكويت . وهي متنعمة لدرجة انها تكاد تنعم الجميع . وقد نتج عن ذلك ان كثيرا من الكويتيين اصبحوا اثرياء بشكل هائل، وقد تسللت الى جيوبهم حصص ضخمة من عائدات النفط بهذه الطريقة . وصار تعبير « دولة الرفـــاه » صفة للكويت . فتعمل وزارات ضخمة واسعة الاجهزة لتأمين التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية لحوالي نصف المليون نسمة هم سكان هذه المَدْيَنة الصحراوية الغريبة، — وان كانت هذه الوزارات تقصر احيانا عن المستوى والانتاج المطلوب او المتوقع . ومع ان المؤسسات الدولية والخبراء كثيرا ما يشيرون الى تدني القدرة على تنفيذ العمليات ، اذا ما قورنت بالمصاريف وبالنتاج المطلوب لوقت معين ، تستمر الدولة في الانفاق وفي استخدام المزيد من الناس وفي مضاعفة جهدها من اجل تحقيق سياسة « دولة الرفـاه » . وهذه نعمة ، على العرب وغير العرب

على السواء . فمشاهد التعاسة الانسانية التي تشاهدها في بعض المدن العربية الاخرى لا توجد هنا على المستوى نفسه من الوضوح والتأثير والشدة . وفي كل مكان من الكويت تمكن مشاهدة اول « دولة رفاه » تعمل في العالم العربي على نطاق واسع . والحقيقة ان نشاطات القطاع العام تطغى في الكويت على نشاطات القطاع الخاص ، مهما حاول هذا القطاع جاهدا فرض ذاته . وهذا يختلف عما يشاهده الانسان في مدن عربية اخرى كعمان او بيروت او جدة . ان مدارس الكويت ومستشفياتها ، ومراكز الاطفائية والشرطة ، والعدد الكبير من مساكن ذوي المداخيل المحدودة ، كلها صقيلة ووقورة وكلها نتاج التصاميم الهندسية المصقولة المتكررة ، وليست نتاج افراد من المهندسين الذين ينحتون المدينة العربية بغرائبهم الهندسية . ويختلف الوضع الطبيعي للمدينة في الكويت عنه في المدة الاخرى ، من حيث بنيانه ومميزاته وقوالبه . فقد انبثق هذا الوضع عن عدد من العوامل : عن البحبوحة الفاحشة ، والسرعة ، وغياب العامل الاقتصادي عن التصميم والبناء ، والهوس فيما يتعلق بالعائدات من الاستثمار ، ومقدرة « المحترفين » من المهندسين والفنيين والمصممين ، وغير ذلك . وباختصار : ان الكويت عربية جدا في تصرفها الاساسي فيما يختص بثروتها الخيالية ، وقد تخلت عن المصطلح العربي ، التقليدي منه والمعاصر ، في العمران وفي الهندسة المعمارية تخليا كاملا ، بحيث انها اصبحت مدينة عربية لكنها من صنف قائم بنفسه .

كانت الكويت الى وقت قريب تشارك اخواتها العربيات في نمط بسيط وعضوي من هندسة المدن والمعمار ذات الصفات القوية المميزة وذات المبررات التي تنبع عن تجاور الصحراء والبحر وعن الطقس القاسي وفقدان مواد البناء كلها تقريبا باستثناء الطين والطوب المجفف . وفجأة تحولت الكويت الى مجتمع فائق البحبوحة ، فيه اعلى نسبة من دخل الفرد في العالم . فتحولت المدينة تحولات جذرية في العشرين سنة الاخيرة من كل ناحية وبكل معنى .

تأثر العمران والفن المعماري بهذه التغييرات كلها اكثر مما تأثر بها اي مظهر آخر من مظاهر المدينة . ونمت الكويت الجديدة بسرعة واتخذت وضعا لا يرتبط ادنى ارتباط مع عناصر البيئة والتراث الاجتماعي والجغرافي والهندسي للموقع ذاته .

فابتعد الفن المعماري ابتعادا تاما عن معظم ما يعتبر علامات فارقة للفن المعماري المعاصر السليم ، واتجه صوب « الحيلة » المعمارية بدلا من ان يستوحي الاوضاع الاجتماعية والطبيعية القوية وبدلا من ان يستفيد من المال الموجود ويدعو افضل المواهب ليوجه التغير المعماري والعمراني نحو وجهات حية ، فلا يلجأ الى ما لجأ اليه من هندسة شكلية خالية من كل معنى .

ان الذي يجري في الكويت فريد من نوعه . وما يجري في نطاق الفن المعماري يجب

ان يهز تفكير كافة المعماريين واختصاصيي تنظيم المدن ونقاد الفن العرب ليبحثوا، بعمق، في المغزى الكامل للتغير المعماري والحضري الجذري وفي اسبابه وليسبروا غور الظاهرة النفسية الاجتماعية للسبب وللنتيجة في ميدان الهندسة المعمارية من ناحية ، وفي تنظيم البيئة وهندستها من ناحية اخرى .

ليس في الكويت احد لا يخطط ولا يضع المشاريع . فالكويت مهرجان حافل بالتخطيط وللمشاريع على اختلافها . وترى فيها حشودا من رجال الاعمال والتجار والمقاولين ، بالاضافة الى المهندسين والمعماريين وموظفي الحكومة بل والاطباء — فهنا الاطباء ايضا يدخل بعضهم حقل البناء والتجارة والمقاولات كمهنة اضافية او كهواية — حشودا من كل لون وخلفية وموهبة ، يتحدثون بطلاقة وبخبرة عن مشاريع تكلف الملايين الدنانير ويناقشون فيها ، وكأنهم يتحدثون عن سعر ربطة عنق او علبة سجاير . وليس في العالم كله مكان يبلغ فيه اهتمام الناس عموما بمشروع ما (من التخطيط الى التصميم الى التنفيذ الى التقاضي من اجل « اوامر التغييرات » المختلفة) حدا اشمل وادق واحذق واذهى من الاهتمام الذي تشهده في الكويت . وكثيرا ما شعرت خلال عملي في الكويت خلال هذه السنوات الست الاخيرة بان المشاريع هنا ، لا السياسة ، هي التي تجمع بين من يجمع بينهم شيء . وفي هذه الايام بالذات يدور الاهتمام الرئيسي لدى شبكات اصحاب المشاريع حول مشروع شط العرب الذي تبلغ كلفته عدة ملايين من الدنانير ، ومشروع الفنيش ، ومشروع المدينة الرياضية الاولمبية ، ومشروع بناء ما يتراوح بين اربعة آلاف وخمسة آلاف مسكن لذوي المداخيل المحدودة — هذا الى جانب مئات المشاريع الاخرى التي تتفاوت بين بناء المراحيض العامة ومواقف الباصات وبناء المدارس الثانوية والمستشفيات . ان المشاريع هنا لهي كالمتاجر الضخمة التي يباع فيها كل شيء ، وشبكة اصحاب المشاريع كزبائن المتاجر ذوي المزاج الصعب في الاختيار .

وليس غريبا اذاً ان يتعرض معظم البناء الذي حصل ، والمكان الذي حصل فيه ، وسبب حصوله ، للنقد الموضوعي والعلمي والاقتصادي ، وان تحصي عليه وجهة النظر الاجتماعية الاقتصادية مآخذ عديدة . وقد كانت عملية الانعاش الاجتماعي الجبارة ، التي بدأها آل الصباح اسسها كهدف وكمسعى سياسي اجتماعي فلسفي ، « بقرة حلوبا » موجهة الى الشبكة المهتمة بالمشاريع والوسطاء والكفلاء ، وادت الرغبة في اغتنام الفرصة الى ان صارت الفرصة سانحة الى استغلال عدد وافر من المشاريع . ان ضخامة وسعة عملية الانارة والاشغال من كافة الانواع والمجالات والابعاد يجعلها ، اذا اخذنا قلة عدد العاملين بعين الاعتبار ، اعظم عملية نسبيا في تاريخ البشرية . والحقيقة ان المنجزات المادية

الملموسة على مسرح العمران في الكويت تشهد على ذلك بافصح مما يمكن ان تنطق به آلات الحساب الالكترونية .

ومع ان الكويت انفقت بمنتهى الكرم على بيروقراطية من اغرب البيروقراطيات في التاريخ ، وعلى المستشارين والاختصاصيين والخبراء والمحاضرين ورجال هيئة الامم ، من سائر الاصناف والجنسيات ، وصرفت مبالغ خيالية على الاجتماعات والمؤتمرات عن كل موضوع تحت الشمس يمكن ان تفكر فيه ، لم تكن الخدمات والمشورة التي حصلت الكويت عليها مقابل ذلك صائبة سليمة على الدوام . فكثيرا ما كان الاشخاص الذين استقدموا لاعطاء المشورة اما اجهل من ان يقدموا مثل هذه المشورة ، او اخجل من ان يحاولوا ابداء رأي ، او اجبن من ان يفتحوا افواههم . وهذا ، برأيي ، ابشع الاختبارات التي عرفتها هذه المدينة العظيمة . اما الخبراء والمستشارون الذين يجرؤون على تقديم نصح صائب وموضوعي وعلى تسديد نقد بناء ، فانهم نادرون — نادرون في بلد يشكو الوفرة في كل شيء آخر . وهكذا تم بنـاء مدينة هائلة بدون ادنى اعتبار مادي للاقتصاد والمنطق والمستقبل والجمال والتراث العربي . فقد كان تدبير امور البلد على صعيد التنفيذ ، بالنسبة الى الفلسفة الموجهة وتدبير امور البلد على صعيد الحكم ، اقل عمقا وشمولا وحنكة مما كان مفروضا فيه ان يكون .

كان رد فعل الحكومة ، لتصحيح هذا الوضع ، ان قامت بالاجراء الطبيعي ، فاحضرت العشرات من الخبراء الاقتصاديين والهندسيين وغيرهم . وغالبا ما اعجزتها بعض العناصر المريبة بين هؤلاء الخبراء ، بفعل حسن النية او سوء المشورة . لهذا تدنت سمعة « الخبير » في الكويت حاليا ، واصبح عرضة للحملات الصحفية . كما شاع الاعتقاد بان الفاشل في بلده هو وحده الذي يأتي الى الكويت لبيع «خبرته» . ومع ان ذلك قد يصح على الكثيرين فانه توجد استثناءات قليلة تناقض هذا الاعتقاد الشائع .

غير ان ما لا شك فيه ابدا هو ان الشخص الذي يلجأ الى الكويت او الى منصب في الكويت يتمتع بمستوى من العيش المادي اعلى منه في اية مدينة عربية اخرى . فالفيلا في الكويت اشبه بالقصر في اي مكان آخر . ويكلف البيت العادي المتوسط الحال ما تكلفه الفيلا في عمان او القدس مثلا . ويملك الناس سيارات كبيرة فخمة واثاثا ثمينا واجهزة تلفزيون والبسة غالية ، ويتمتعون بتطبيب وتعليم مجانيين ، وبمرتبات تفوق المرتبات في اية مدينة عربية اخرى . لكن تمتع الكويت بمستوى من المعيشة المـادية هو اعلى مستوى ممكن لا تخفف منه ظاهرة اخرى : هي ان نوع المعيشة الاجتماعية والحضارية والثقافية والفنية والترفيهية لا يزال متخلفا عنه في المدن العربية الرئيسية .

الكويت مدينة عمال وموظفين وتجار . وهي ليست بالمدينة التي يؤمها الناس في العادة كما يؤمون بيروت او باريس او طوكيو او نيويورك . فليست فيها اماكن تسلية ، وليست فيها اية من وسائل المتعة التي يجدها المرء عادة في المدينة الحديثة الكبيرة . انما يجيء الناس الى الكويت لكي يشتغلوا ويقوموا بالاعمال الكبيرة او الصغيرة ويحصلوا على الثراء اذا امكنهم ذلك — او على الاقل كي يحصلوا معيشتهم بما فيه الكفاية عندما يصبح صعبا عليهم تحصيلها في البلدان الاخرى . وعلى هذا فالبطالة في الكويت نزرة يسيرة ، ولو ان اوقات الفراغ فيها وافرة . والجو العام فيها مشحون بفكرة « العمل العمل العمل » ، بدون اعتبار لنوع العمل او تأثيره او فعاليته ، ما دام هذا العمل يدر مدخولا معتبرا .

ويشكل العمال جزءا كبيرا من مجموع القوة العاملة في الكويت ، فما يزال عمال المنشآت والميكانيكيون والفعلة على سائر انواعهم يعملون بجد ونشاط لبناء هذه المدينة الصحراوية الفريدة ، وللقيام بالخدمات المتعددة التي يتطلبها مجتمع ينعم بالبحبوحة . وموظفو الحكومة قوة حقيقية ، تسير دفة الادارة في المدينة والبلاد . والتجار يستوردون من الخارج كافة البضائع التي يحتاجها السكان ويستهلكونها ، من الدبابيس الى البولدوزرات .

وقد كان من نتيجة التركيب والبنيان العمراني قديما وحديثا ان احتشدت اغلبية المكاتب الحكومية والمؤسسات التجارية والمالية والمصرفية واتخذت مقرها في الكويت القديمة . لهذا ينجم عن التنقل من المنازل للمكاتب ومن المكاتب للمنازل حركة محمومة ومد وجزر طاغيان ، تتميز بها الكويت على سواها ، اذ ان نمط الحركة وازدحام السير في المدن العربية الاخرى يتخذ طابعا آخر مختلفا عنه هنا .

وتشكل الهجرة الجماعية التي يقوم بها الناس كل صيف ظاهرة تكاد تكون فريدة . فما ان يأتي شهر تموز (يوليو) من كل عام حتى يهرع عشرات الالوف من السكان مصطحبين عائلاتهم للفرار بهم الى اماكن يكون الطقس فيها اقل حرارة . وتتوقف جلسات البرلمان آنذاك ، ويكون المجلس البلدي في اجازة ، وتتخذ المدينة باسرها طابع عطلة . اما الذين يبقون في المدينة فمقدار العمل الذي يطلب اليهم القيام به يصغر بكثير عن المعتاد ، وهذا يعوض عما يقاسون من حر لا يمكن ابدا ان يطاق — بالرغم من انه تكاد لا توجد غرفة في الكويت تخلو من جهاز للتهوية يعمل نهارا وليلا .

وهناك ضرب آخر من الهجرة ، يقوم به بعض السكان كل عطلة اسبوع على مدار السنة ، عندما تتوجه جماعات كبيرة قاصدة البصرة ، حيث يتاح لها ان تتمتع بكثير من الاشياء التي لا تجدها في الكويت او التي لا يسمح لها بها فيها . وتدر هذه الزيارات الاسبوعية مدخولا عاليا على البصرة ، لم تكن تعرفه قبل ان فرضت الكويت الحظر على تعاطي المشروبات منذ حوالي سنتين .

ويملك السكان في الكويت ، اذا اخذنا عددهم بعين الاعتبار ، من السيارات والمنازل والآلات اكثر مما يملكها سكان اية مدينة عربية اخرى. وينطبق الشيء ذاته على استهلاك المشروبات الخفيفة ، واستهلاك الطاقة الكهربائية . ووسائل التسلية المحببة للسكان هي الحفلات والمآدب ، وسياقة السيارات ، والنزهات في الزوارق ، وصيد السمك ، وصيد الطيور (« القنص ») .

اما في الليل فالكويت اشبه بمدينة اشباح . فليس فيها نوادٍ ولا علب ليلية ، ولا كازينوهات ، ولا يجد مغامرو الليل امامهم غير دور السينما ، ومنها هنا ثلاث او اربع ليرضوا بها اذواقهم الليلية. الا ان هذا لا يعني ان الكويت مدينة ميتة في الليل. بل انها على العكس من ذلك ، ربما كانت انشط مدينة ، ليليا ، في البلاد العربية . اما حياة الليل هذه فتتكون من حفلات خاصة ومن « الديوانية » ومن صخب السلك الدبلوماسي ومع ان المشروب محرم قانونيا ، تدبر الكويت امرها وتحافظ على سمعتها بان فيها دوما ما يرطب ، ولا يجد المرء جفافا في الكحول ايان كان في الليل . اما كيف يتم ذلك كله فسرّ مغلق على ادراك كاتب هذا المقال وتخيلاته !

والكويت في الليل ، التي تنيرها انوار الشوارع من كافة الالوان واضواء السيارات التي لا تنقطع ، اختبار بصري جديد ، اختبار للعين جديد . وهي جذابة تستهوي النظر بشكل خاص من الجو ، اذ يرى المرء ، وهو على ارتفاعات مختلفة ، صورا متلألئة مختلفة وخاصة صورا لشبكة الطرقات في المدينة ، التي تنعكس نحو قلب المدينة المتأجج النابض فتضيع معالمها ، وصورا للشوارع الرئيسية المنيرة المتحركة التي تتوهج كعقود لا آخر لها من اللؤلؤ والماس وغيرها من الحجارة الكريمة : وكأنها قطعة نحت متعددة الالوان متحركة . وتبدو دراما الليل في الكويت اكثر دراماتيكية اذا امّها الزائر جوا وجاءها ليلا من بيروت ، مثلا ، فمر فوق مجموعات القرى المنثورة على الجبال اللبنانية ، ثم فوق دمشق وعبر الصحراء المظلمة الى الكويت . فتنكشف امامه ، رأسا ، صورة منطقة مسطحة ، وتتراءى له اجزاؤها وتنجلي له صفاتها الطبيعية — التي تعكس الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والمعاصرة — تماما مثلما يكشف الفيلم السالب عن الصورة في اللون الاسود والابيض .

تعكس المدن العربية في الليل التقدم الاقتصادي الذي حققه العالم العربي في العقدين الماضيين .قبل ذلك الحين كانت المدينة العربية في الليل معتمة صغيرة نسبيا . ثم ازدهرت ولا تزال تزدهر وتتوسع لتسد متطلبات السكان ، الذين اخذوا يزدادون عددا ويزدادون (كما نأمل) استنارة ، فصارت المدينة اشد اغراء وجاذبية في المساء . والكويت

هي اكثر المدن العربية اغراء من هذا القبيل . يصدق هذا الوصف عليها حينما ينظر المرء اليها من عل ، حيث تقع الكويت المخططة ضمن نطاق الرؤية : كويت مئات الاميال من الطرق الدولية الممتازة ، ومئات الدوّارات ، وملايين المصابيح الكهربائية .

غير ان للمنظر على الارض ، على مستوى المشاة او حتى على مستوى سائقي السيارات ، رد فعل مناقضا للمدينة الشائقة المتوهجة نورا ، بالرغم من انوارها الساطعة المتعددة الالوان . وذلك لما فيها من فراغ الليل الواسع ، من شيء شبيه بليل « مدينة الاشباح » ، اذ لا توجد حياة ليلية ظاهرة خارج قدس اقداس المنزل . فلا يرى الانسان غير سيارة تمر بين آن وآخر ، منطلقة من دوار الى دوار ، وغير سهارى عائدين ، واحدا بعد الآخر ، على الطرقات الفخمة ، مما يجعل المدينة تبدو في الليل خالية وباردة ، بسبب المسافات وقلة كثافة السكان ووفرة الاراضي الخلاء .

يتصف المزاج في الكويت بالهدوء ، بينما تتصف الحركة بالسرعة والهيجان . فالمساحات واسعة ومنبسطة ، واسعة ومنبسطة في الواقع لدرجة ان نفرا قليلا من المخططين كانت لديهم الجرأة على ابداء الملاحظة (وهي الملاحظة الواضحة البديهية) بان المساحات هي بالفعل واسعة ومنبسطة . وابعادها ، على نقيض بيروت مثلا ، هي حاصل الوفرة الكبرى في تقاليد المدينة الجميلة التي تفجرت قبل اوانها ، جماليا وعمرانيا ، عاجزةً عن ادراك عناصر تخطيط المدن وتكوينها اللائقة بالكويت من النواحي العضوية .

كل شيء في الكويت مغالى فيه . ابعاد الطرقات والسيارات والمباني ضخمة جدا ، كذلك ابعاد الناس ، اما ابعاد الاشجار فقصيرة بالفعل . واسواقها مغمورة بالبضائع والمتاع من كل بقعة في الكون . فالقوة الشرائية هنا عظيمة وكبيرة ، واسعار الحاجيات ، ما عدا المأكولات ، منخفضة . ولذلك يشتري كل انسان ويستهلك ، ويشتري مرة بعد اخرى ، ويستهلك ويستهلك . ومما يصبغ الحياة في الكويت ببريق خاص ، السلك الدبلوماسي . فاعضاؤه يحضرون كل مناسبة ، وانت تحس بوجودهم لانهم كثيرو العدد في بلد صغير ، فهم اشبه بسمكة كبيرة في بركة صغيرة . تراهم في المطار لتوديع مسافر كبير ، وتراهم هناك ايضا لاستقبال عائد كبير . وهم يحضرون حفلات افتتاح المؤتمرات ، ويحضرون حفلات اختتامها . ويذهبون في المناسبات السعيدة للتهنئة ، ويذهبون في المناسبات الحزينة للتعزية . وتراهم في هذه الوزارة او تلك ، او ترى سياراتهم الليموزين التي ترفرف عليها اعلام بلادهم ، وخاصة في مجلس التخطيط ووزارة التجارة والصناعة (وهما حاليا متجاوران ، مما يسهل الامر عليهم) يستفهمون عن مصير هذا المشروع او ذاك ، واين وصل العمل في خطة السنوات الخمس واين لم يصل ، ويقدمون خدمات خبرائهم

وتجارهم وشركاتهم ، ويدعون هذا الموظف الحكومي الكبير او ذاك لزيارة بلدهم ويضعون معه برامج الزيارة العتيدة . ليس في العالم عاصمة « يصطدم » الانسان فيها بهذا العدد الضخم من الدبلوماسيين كما يفعل في الكويت ، — بكل ما في كلمة « اصطدام » من معنى حرفي. وفي الليل لا تتوقف حفلات الكوكتيل عن التسلية والابهاج والاخذ بالالباب والاستحواذ عليها .

تقيم الجالية الدبلوماسية او سلسلة الجيوب الدبلوماسية الصغيرة في عدد من الفيلات الغريبة الاشكال على جانبي شارع الاستقلال او في الشوارع المتفرعة عنه ، وتقوم مكاتبها عادة على جانبي شارع فهد ، تزينها الاعلام الملونة . ان اثر الدبلوماسيين في مدن كلندن او موسكو ، او حتى كالقاهرة او بغداد ، تحد منه كثافة المدينة ومشاكل الجماهير ومشاغلها واندفاعها وركضها لكسب العيش . اما في الكويت فان اثرهم يتضخم ويبالغ فيه بسبب حداثة مجيئهم وصغر منطقة الاحتكاك بهم واناقة مساكنهم الظاهرة وحماسهم الزائد للمشاريع وحبهم الغريب لبعض الموظفين والافراد .

في الكويت ، وهي المدينة والدولة ، والمدينة الام في اغنى دولة في التاريخ ، نشاط دبلوماسي قوي يصعب على وشنطن ولندن وموسكو مضاهاتها فيه . وبما انها قصبة كبيرة اذا ما قورنت بقرى كانت بسيطة هادئة فيما مضى ، مثل الجهرة والفحاليل ، وهي ايضا المدينة الرئيسية التقليدية في المنطقة — فانها قد خضعت ، في غضون هذه الفترة القصيرة ، لكثير مما كتبه ابن خلدون بخصوص القرى التي اصبحت مدنا .

لقد اضحت الكويت مدينة الاعاجيب من بين المدن العربية . اضحت شيئا يجعل من « الف ليلة وليلة » مجرد حلم بسيط . فهي من حيث الضيافة مدينة عربية مائة بالمائة . لقد قامت بدور المضيف السخي لعدد من الضيوف يفوق ، اذا قيس بالنسبة الى السكان ، عدد ضيوف اي مضيف آخر في التاريخ . ولعله لا يوجد في التاريخ شبيه لهذه الحالة . مدينة على هذا الصغر ذات قلب على هذا الكبر . فعدد زوار الكويت وضيوفها ، افرادا ومندوبين ، ممن تقوم الكويت باستضافتهم باستمرار وتقيم لهم الحفلات والمآدب ، يفوق اية سابقة في التاريخ . بل ان رجال مؤسسات الاعمال الذين يأتون الى الكويت لاي سبب يحلون هم ايضا ضيوفا على الحكومة . والواقع ان مجموعة مضافات الكويت هي احدى المؤسسات الكبرى فيها ، وتدرّ الفنادق التي ينزل فيها ضيوف الحكومة ، ارباحا طائلة على اصحابها . وفي الكويت ايضا عدد كبير من رجالات العرب المعروفين في بلادهم ممن غادروا بلادهم راضين او مرغمين واعطوا في الكويت اعمالا ومناصب .

كانت الكويت القديمة مثالا للمدينة العربية الصحراوية . وقد شهدت ، خاصة في العقد

الاخير من السنين ، تبدلا معجزا . وكان تطور الكويت سريعا جدا الى حد انها تقدمت على سائر المدن العربية الاخرى تقريبا في البناء وفي مستوى المعيشة وفي التركيب والمحتوى المدَيَني . وهي تتفوق على كافة المدن العربية من حيث الخدمات الاجتماعية والطاقة الكهربائية والقوة الشرائية وفي حقول الانعاش الاجتماعي . وقد كسرت الكويت جميع المعدلات السابقة في ميدان بناء المدارس ، فلا شك ان مباني المؤسسات التعليمية هنا يمتاز امتيازا كبيرا عما هو عليه في اية مدينة عربية اخرى، ان لم نقل في اية مدينة اخرى اطلاقا.

اجل ، لقد قامت الكويت في حقل التعليم بعمل مدهش . فالمدارس التي بنتها ، من حدائق وروضات الاطفال الى المدارس الثانوية ، تستحوذ على الاعجاب . ولا يتوانى مخططوها عن توفير كل جهد لتزويد الطلبة باعلى مستويات التسهيلات والمرافق . ثم ان جامعة الكويت تلوح في الافق — وستصبح ، عندما تفتح ابوابها لاستقبال الطلاب من الكويت ومنطقة الخليج العربي ، نبراسا للنور والعلم في منطقة مضى عليها وقت طويل وهي منسية ، او لعلها هي نسيت العالم .

وهناك حقل آخر حققت الكويت فيه معجزة . فبينما ادى مسير العمران الآلي في كثير من المدن العربية الى ابادة عدد ضخم من الاشجار والمناظر الطبيعية المحلية ، وقضى على الخضرة بلا مبالاة وبقسوة ، انشأت الكويت ، على ارضها الصحراوية ، وبالرغم من ندرة المطر والماء ومن الطقس المحرق ، مئات الآلاف من الاشجار والفدادين العديدة من الخضرة والمناظر الطبيعية الجميلة الواسعة . وقد يبدو غريبا ان نقول ان الانطباع الذي تتركه الكويت في اماكن كثيرة هو انطباع عن مدينة حدائقية خضراء، في حين ان اكثر كل مدينة عربية ، كانت منذ نشوئها والى ما قبل سنوات فحسب مدينة حدائق خضراء، قد اضحت الآن ذات مظهر صحراوي جاف .

ان الكويت اروع المدن العربية، من اكثر من ناحية وبالرغم من عوائقها الكثيرة. وربما كان الله والقدر قد شاءا لهذه المعجزة العربية العمرانية ان تحصل في اقسى بقعة من بقاع الارض ، لتقوم بدور المرشد ، كمصباح هداية ، للمدن العربية الاخرى ، لتعرف ماذا عليها ان تفعل من اجل سكانها . افليست المدينة ، في جوهرها ، مجرد مكان يقدم لساكنيه محيطا يؤمن لهم الصحة والرفاهية والامان ؟

ان الكويت اقرب المدن العربية قاطبة من التقيد بالمطاليب الاساسية لتخطيط المدن الانساني . ان مجتمعا بكامله معدّ للبناء ، للبناء من اجل الانسان — وذلك ، على ما اعتقد ، هو الهدف الاسمى ، والعمل الاسمى ، والانجاز الاسمى . لهذا فاعتقادي ان الكويت ستظل تذكر على الدوام ، فان ما شادته من اجل خير الانسان سيخلد طويلا حتى بعد ان يزول ما شيد من اجل باطل الانسان وغرور الانسان .